غرام يوم الثـــلاثاء

للدكتور زكي مبـارك

أخي الأستاذ الزيات :

إليك أقدم تحية الشوق ، ثم أذكر أني أكتب هذه الكلمة ، وهي مقدمة القصيدة الآتية ، بعد المحادثة التليفونية التي دارت بيني وبينك منذ لحظات في صباح هذا اليوم ، وهو يوم عرفات ، أعاده الله عليَّ وعليك بخير وعافية !

وقد اتفقنا على نشر هذه القصيدة بالرسالة في العدد المقبل ، لأستريح منها وتستريح مني ، فلو بقيتْ بين يديَّ أياماً أخَر لقتلتني ، لأنها تقهرني على الغناء بعد نصف الليل ، وهو أصلح الأوقات للغناء ، ولكنه يُكدِّر بمحادثات تليفونية مزعجة ، فقد يخلو لكل سامر أن يسأل عني بعد نصف الليل ، وكذلك الحال مع السامرات ، فهنَّ يزعجنني بلا ترفق ولا إشفاق

أنا أعرف أن قرائي يحبونني ، لأن أدبي يقوم على الصدق ، ولكني أرجوهم أن يترفقوا فلا يسألوا عني بعد نصف الليل

عفا الله وصفح عن أولئك الهاتفات بعد نصف الليل !

أترك هذا وأحدثك عن تاريخ هذه القصيدة ، فلها تاريخ وتواريخ

هذه القصيدة من وحي روح غالية ، هي الروح التي تلقيت عنها الدرس الممتع المشبع في شرح نظرية وحدة الوجود

ما أكرمَ دمي وما أسخاه حين أسمع صوتها الجميل !

أترك هذا أيضاً وأحدثك عن التاريخ الجديد لهذا القصيد :

رأى صديقٌ عزيز أن يغنيه الأستاذ محمد عبد الوهاب ، فقابلت صديق عبد الوهاب في مكتبه بشارع توفيق

مَن يصدِّق أن هذا الباكيَ الشاكي رجل أعمال ؟ !

قدِّمت إليه القصيدة ومعنا الأستاذ عبد الحميد عبد الحق ، الذي وضع قانون اللغة العربية ، فنظر في القصيدة لحظات ، ثم اقترح تعديلات ، فما تلك التعديلات ؟

إنه اقترح أن أنوِّع الأوزان ليلعب كما ألعب « وذلك نص كلامه بالحرف »

وكان الوجد في ثورته العاتية ، فرأيت أن أنوِّع الأوزان ، ليلعب كما ألعب ، وما كنت يوماً من اللاعبين !

ثم خطر في البال أن أغني قصيدتي في محطة الإذاعة بصوتي ، وهو في رخامة صوت الموسيقار محمد عبد الوهاب ، ولكنَّ أبنائي اعترضوا ، فما يجوز عندهم أن يكون أبوهم من المغنين ، وهو يملك أكبر مجموعة من الألقاب العلمية

قلت لأبنائي : ألا تسمعونني أغني من حين إلى حين بقوة تنقل صوتي من الدور الثاني إلى أسماعكم بالدور الأول ؟

قالوا : نعمْ

قلت : أنا أغني أشعاري حين يجود بها الوحي ، فما الذي يمنع من تقديم صورة ناطقة يعرف بها الجمهور كيف أنظم أشعاري؟

قالوا : وأين اللحن ؟

قلت : أنا اللحن ، فالشعر شعري ، وأنا أعرف كيف ألحنه بالصورة التي تموَّجتْ بها خفقات قلبي

لم يكن من السهل أن أقنع أبنائي ، وهل أقنعت نفسي حتى أقنع أبنائي ؟

إن جاز أن أغني هذه القصيدة في محطة الإذاعة ، فيجب أن أكون في حال تشابه حالي في الأوقات التي نظمت فيها هذه القصيدة

وهذا غير ممكن ، ففي المذيعين فريقٌ من تلاميذي ، ولم يرني أحدٌ من تلاميذي في لحظة بكاء

نظمت هذه القصيدة وأنا أبكي من الفرح ، وأصرخ من الفرح ، فما أنعم الله على شاعر بمثل ما أنعم عليَّ بإقبال تلك الروح

من حق الحياة أن تصنع بأبنائها ما تريد ، فتُسعدهم أو تشقيهم كما تريد ، ولكنني فوق الحياة ، لأني العاشق المسيطر على تلك الروح

ثم ماذا ؟

ثم أخبر صديقي صاحب « الرسالة » باعتراض الصديق محمد عبد الوهاب ، إنه يقترح ترك المكان والزمان ، فلا أقول « مصر الجديدة » ، ولا أقول « يوم الثلاثاء »

أنا أوافق على اقتراح هذا الصديق العزيز ، بشريطة واحدة هي أن يسمح بتزوير العواطف ، والغرام الذي أوحى هذه القصيدة

مكانه فى مصر الجديدة ، وزمانه فى أيام الثلاثاء

إن قراء « الرسالة » يذكرون أنني أول كاتب وجّه الأنظار إلى الفتن التى تُنثر نثراً فنيًّا فى شارع فؤاد

سأغنى بجمال بلادى ، سأغنى بجمالها إلى آخر الزمان

أما بعد ، فقد اتفقت مع الأستاذ الزيات على إيداع هذه القصيدة « بمطبعة الرسالة » فى يوم الأربعاء ، لأستريح منها وتستريح منى ، فما لى قدرة على التفكير فى مصر الجديدة أيام الثلاثاء ، ولا أنا قادر على تصور غرامى بمصر الجديدة أيام الثلاثاء ، ولا أنا مستطيع نحر قلبي فى يوم عرفات

أنا بخير وعافية ، فلى مع هذه الروح فى ليلة عيد القمر ميعاد

وسأغنى بحضرتها القصيدة الآتية فأقول :

يا ليل ، يا ليلى ، يا ليل
يا ليل ، يا ليلى ، يا ليل
يا ليل ، يا ليلى ، يا ليل

وهنا أذكر أن الأستاذ عبد الوهاب اعترض على هذه الزفرة المحرقة :

يا ليل ، يا ليلَى ، يا ليل

وقال : سأترك هذه الكلمات عند الغناء

فقلت : ولكنى كنت أهتف بهذه الكلمات عند كل فاصلة من فواصل هذا القصيد ، فتأمل لحظة ثم قال : هى كلمات غير مفهومة ، ولكنها « شمهورش » ، وللجن وحىٌ يضلل الشعراء !

وأردت أن آخذ القصيدة لأردها إليه فى حدود ما اقترح ، ولكنه قال : اترك لى هذه النسخة ، وعدّل النسخة التى عندك ، فستكون لى معاودات أصل فيها إلى سريرة قلبك فى اللحظات التى نظمتَ فيها ذلك القصيد

تاريخ لطيف

الصفحات الماضية كُتبتْ بالأمس ، وهو يوم عرفات ، والصفحات الآتية أكتبها فى مساء هذا اليوم ، وهو يوم العيد ، فما الذى وقع فى صباح هذا اليوم ؟

مضيت إلى قصر جلالة الملك لأقيد اسمي فى دفتر التشريفات ، وتلك فرصة ذهبية أرى فيها أصدقاء لا يتسع الوقت للسؤال عنهم فى يوم العيد

وراعنى أن أرى رجلاً يجذب يدى بعنف وهو يقول : قيد اسمك وتعال معى !

والتفتُّ فإذا هو الأستاذ وهيب دوس الذى تحدثت عنه فى مجلة « الرسالة » مرات ، ففرحتُ بلقائه وصحبته إلى حيث يريد ، وشاء كرمه أن ينقلنى بسيارته إلى سنتريس ، فكانت النتيجة أن يصحبنى إلى حيث أريد

وفى الطريق سألنى عما يشغلنى من الشؤون الأدبية فقلت : إنى مشغول بنظم قصيدة فصيحة على وزن الموّال

— وما الموجب لذلك ؟

— الموجب واضح فى نفسى ، وهو أن وزن الموال وزنٌ قديم عرفه المصريون قبل الإسلام بأزمان وأزمان ، ولهذا يغنّونه بسهولة عجيبة ، تشبه السهولة التى يغنى بها أهل الشام والعراق قصائد العرب القدماء

— وإذن ؟

— وإذن يجب أن ننظم الأغانى باللغة الفصيحة نظماً تأنس إليه الموسيقا المصرية ، فنجمع بين المزيتين ، ونتقى لذعات الأستاذ سليمان الصفوانى

— ومن هو الصفوانى ؟

— هو صديق عراقي عيّرنى فى مجلة بغدادية بأننا ندخل « لم » على الفعل الماضى فنقول :

« فى البحر لم فتكم فى البر فتونى »

وقد أجبت بأن « لم » تجعل المضارع ماضياً ، فدخولها على الماضى توكيد ، والجواب صحيح ، ولكن ما الذى كان يمنع من أن يقول صديقنا عبد الوهاب :

« فى البحر ما فتكم ... »

— وما هى خصائص هذه القصيدة ؟

— لها خصيصة أساسية ، وهى التحرر من مراعاة مايسمى فى علم العروض بالإبطاء ، فاللفظة تُقبَل بكل ترحيب حين يوجبها المعنى ، فلن ألتزم ما التزمتُه فى قصيدتى عن الأسكندرية وقصيدتى عن مصر الجديدة ، وقصيدتى عن بغداد ، فكلمة « الساق » كررتها عامداً متعمداً لأنها مطلوبة فى القطعة الآتية :

شربتُ دمى فلا كأسٌ ولا ساقى